تاريخ البلاد العربية الحديثة **(المحاضرة الأولى)**

الإدارة العثمانية في البلاد العربية خلال القرن السادس عشر

_السيطرة العثمانية على الوطن العربي في القرن السادس عشر.

كانت الوطن العربي في اعقاب سقوط الدولة العباسية على يد المغول عام ١٢٥٨ يتألف من جزأين المشرق العربي ويضم الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق واقطار الخليج العربي والمغرب العربي ويضم ليبيا وتونس والجزائر ومراكش.

وفي عهد السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) حدث انقلاب في استراتيجية التوسع العثماني فتوقف زحف العثمانيين صوب الغرب واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً ، وقد اختلف المؤرخون في تفسير هذا التحول العثماني بأن الدولة العثمانية نحو الوطن العربي فالبعض يفسر هذا التحول العثماني بأن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر وانه كان عليها في أوائل القرن التالي ان تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع العثماني في اوربا يسلمون بأن الفتوحات العثمانية لم تنقطع تماماً من الجهة الغربية بعد عهد السلطان سليم الأول الا انهم يرون ان مركز الثقل في التوسع العثماني قد انتقل نهائياً من الغرب الى الشرق منذ أوائل القرن السادس عشر ، وهناك فريق ثانٍ من المؤرخين يربط هذا التحول العسكري العثماني نحو الوطن العربي بالأحداث المحلية التي كانت تدور هناك وتشمل هه الاحداث في قيام الدولة الصفوية في فارس بغزو العراق ومحاولتها التوسع ومد سيطرتها على بلاد الشام للوصول الى البحر المتوسط والاتصال مباشرة باوربا ، وهناك فريق ثالث من المؤرخين يفسر التحول العثماني نحو العالم العربي في أوائل القرن السادس عشر بأحداث عالمية وقفت حول اطراف العالم العربي سواء الشرقية او الغربية ويقصد بهذه الاحداث زحف الاستعمار الأوربي على جناحي العالم العربي وتصدي العثمانيين لهذا الزحف لمنع وصول الاوربيين الى العالم الإسلامي وتمثلت تلك بالاعتداءات الاسبانية والبرتغالية التي هددت عرب المغرب وسعت لاحتلال بلادهم وانتزاع السيطرة على مياه البحر المتوسط في ايدي العرب المسلمين والزحف البرتغالي بدأ يطرق أبواب المشرق العربي بعد ان التف حول افريقيا وشرع في احتكار الجانب الأكبر من تجارة الشرق وتحطيم قوة العرب وتجارتهم في البحار الشرقية واستولى على قواعد ومحطات عند مدخلي البحر الأحمر والخليج

العربي بل حاول التسلل الى داخل البحر الأحمر املاً في النزول الى الحجاز وانتهاك حرماته المقدسة، وقد وجد سلطان سليم الأول تشجيعاً من جانب علماء المسلمين وبعض المؤرخين يذكر ان من أسباب التوجه العثماني نحو الشرق الى ضعف الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام الامر الذي شجع العثمانيين على التوجه شرقاً وايضاً لرغبة العثمانيين القوية للوصول الى مياه الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر المتوسط لغرض سيطرتها البحرية خاصة بعد اهتمام السلطان سليم الأول ببناء القوة البحرية .

_الاحتلال العثماني لمصر

اختلف شعور المصريين نحو العثمانيين عن شعور اهل الشام الذين رحبوا بالفاتحين الجدد، فقد ايد المصريون طومان باي في استعداداته لصد العثمانيين واستعرض طومان باي قواته واسلحته ليستعيد ثقة الأهالي في قوة المماليك شيئاً، ففي كانون الثاني عام ١٥١٧ التقت القوات العثمانية مع القوات المملوكية في معركة الريدانية وانزلت المدفعية العثمانية بالمماليك هزيمة كبيرة ودخل العثمانيون القاهرة مخطب السلطان سليم الأول على منابرها ورغم ذلك لم يتسرب اليأس الى قلب طومان باي فقد بذل اقصى جهده للدفاع عن البلاد وحدث قتال عنيف في شوارع القاهرة لمدة ثلاثة أيام وقد ظفر طومان باي ببعض الانتصارات المؤقتة ولكن دون جدوى وعندئذٍ حاول السلطان سليم وقف القتال وعرض على طومان باي حكم الصعيد تحت السيادة العثمانية الا انه رفض اذ كان لا يزال يتأمل انقاذ الباد ولما انتهى القتال بهزيمة المماليك اضطر طومان باي بالفرار الى منطقة دلتا والتجأ الى شيخ بدو البحيرة الا ان الأخير عندما ايقن بزوال دولة المماليك سلمه غدراً الى اعدائه فأمر السلطان بقتله فشنق في ١٣ نيسان ١٥١٧ وهكذا اطويت صفحة المماليك بتحول مصر والشام الى ولايتين عثمانيتين ، ولم يمكن السلطان في مصر مدة طويلة ، فلم تتعد اقامته بها ثمانية شهور قضاها في دراسة أحوال مصر الداخلية بنفسه ولم تقتصر اقامته على القاهرة وحدها بل زار بعض المدن المصرية كرشيد والإسكندرية ، حيث استعرض بعض قطع الاسطول العثماني ، وجمع السلطان العثماني اثناء اقامته بمصر بعض المعلومات عن الأحوال والإدارة والمالية في البلاد حتى يسترشد بها آل عثمان في حكم مصر وادارتها ومن اعماله وهو في القاهرة إصداره العفو عن البقية الباقية من المماليك ليحتفظ بهم كعنصر هام في إدارة البلاد، ولذا اصدر أوامره

بعدم التعرض لهم ولممتلكاتهم وباستمرار صرف مرتباتهم كذلك ارسل عدداً من أصحاب الحرف والصناع الى إسطنبول للمساهمة في أنشطتها، وبعدان عين ضاير بك المملوكي والياً على مصر غادر السلطان سليم البلاد في العاشر من أيلول ١٥١٧ عائداً الى إسطنبول وكان قد سبقه اليها وبناء على أوامره الخليفة العباسي المتوكل على الله وبقي فيها حتى وفاة السلطان سليم عام ١٥٢٠ مما أدى مصر وظل مقيماً فيها حتى وافته المنية اما السودان ، فقد كان انتشار الإسلام فيه أيام حكم المماليك دافعاً لكي تجيش القبائل السودانية في ظل الولاء لمماليك ولكن السودان لم يكن موحداً ولم يكن الحكم فيه مركزياً حتى قيام دولة الفرنج الإسلامية عام ١٥٢٢ وحاولت توحيد وادي النيل في دولة إسلامية بعد ان تعددت دولة ومملكاته .

وفي عام ١٥٠٤ نشأ تحالف اتحادي بين قبائل القواسمة بزعامة الشيخ عبد الله جماع وقبائل الفرنج برئاسة الملك عمارة دونقس وكونا جيشاً موحداً تغلب سهولة على الممالك الصغيرة (علوة والمغرة) واقاما على أساس تحالفي اول دولة مركزية موحدة في قلب السودان عاصمتها سنار تضم كل أقاليم وسط السودان واتسعت شمالاً وغرباً والى جهة الشرق حتى الحدود الاثيوبية، وكانت دولة سودانية فتية، كما ضمت أقاليم المسجات في كردفان الى حظيرة الدولة الموحدة.

وفي عام ١٥٢٠ تمكن العثمانيين من السيطرة على بلاد سكوت والمحس بعد ان نشب صراع بين قبيلة الجوابرة وقبيلة الغربية التي استنجدت بالعثمانيين بعد ان اوشك الجوابرة على الانتصار عليهم فارسلوا سرية جند من البوسنة تحت قيادة حسن قوسي وتمكنوا من تغلب على الجوابرة ، حيث تقهقروا الى إقليم دنقلا ،واصبح حسن قوسي حاكماً شبه مستقل على بلاد النوبة ، الا انه يدين بالولاء والطاعة للسيادة العثمانية في مصر ويرسل لهم جزية وعند وفاته تولت دريته حكم المنطقة من بعده واتخذوا من (الدر) عاصمة لهم، وبعد ان وصل نفوذ آل عثمان الى بلاد ستكون والمحبس وجاوروا الفونج من جهة الشمال واحتلوا سواكي منفذ بلاد السودان الوحيد الى خارج وخاصة لتأدية فريضة الحج ولابد والحالة هذه ان ينزعج عمارة من هذه القوة الجديدة والتي اتخذ سلطانها لقب خليفة المسلمين وبديي ان شاوره الشكوك عن نيات العثمانيين اذ ربما بقوة الاندفاع هذه وبلقب خليفة المسلمين ان يتوغلوا داخل أراضيه.

(المحاضرة الثانية)

_ الجليليون في الموصل

ويرجع اصل هذه الاسرة الى (عبد الجليل حسن الجليلي) الذي كان قد هاجر الى الموصل من ديار بكر في أوائل القرن السابع عشر وفي عام ١٧٢٦ اصدر السلطان العثماني فرماناً بتعين (إسماعيل بن عبد الجليل) حاكماً على الموصل ومنحة لقب بكلر بك ويعود سبب اصدار السلطان العثماني فرماناً بتعين إسماعيل الجليلي وهي خدمات الكبيرة التي قدمتها اسرة آل الجليلي الى والي الموصل مصطفى باشا في عام ١٧٢٠ وذلك عندما عجز الوالي عن بناء القناطر الحجرية على جسر الموصل سبب عدم وجود الأرصدة المالية في خزينة ولاية الموصل فتبرع إسماعيل الجليلي بنفقات بناء جسر الموصل ، كما كان لموقف آل الجليلي عندما فرض الوالي ضرائب جديدة على ولاية الموصل لسد العجز الحاصل في خزينته فتبرع اسماعيل الجليلي بالمبالغ المطلوبة وهكذا انقذ الاهالي من الضرائب فزاد حب اهالي الموصل له وزادت شعبيته كثيراً وزادت مكانته لدى الباب العالي كثيرا عندما ساعد الجيوش العثمانية في الحرب التي دارت بين العثمانيين والفرس عام ١٧٢٣ حيث تحمل اسماعيل الجليلي كافة نفقات الحرب من مال وسلاح ومؤن وذخيرة وبعد استلام اسماعيل الجليلي ولاوية الموصل استطاع السيطرة على الفوضى فاستتب الامن الذي كان مفقوداً واعيد النظام وبعد وفاة إسماعيل الجليلي اسندت ولاية الموصل الى ابنه حسين باشا حفيد عبد الجليل وفي فتره حكمه هاجم الفرس الموصل عام ١٧٣٣ فتبرع آل الجليلي بالاموال ودافعوا عنها دفاعاً مستميتاً وبذلك انتصرت الموصل على اعدائها فكافأه السلطان بمنحه رتبة وزير في عام ١٧٤٣ ، وبعد ان عاد الهدوء الى ولاية الموصل اولى حسين الجليلي اهتماماً بالعلوم وقد برز في عهده عدد كبير من المبدعين في المجالات العلمية والأدبية ، وقد كان آل الجليلي يقدمون جوائز ثمينة مكافأة لكل من يترجم من اللغات الفارسية او التركية الى اللغة العربية، كما رعوا المراكز العسكرية فكانت لهم قواعد عسكرية قوية ، الا ان هذا الرقي لم يكن يرق لوالي بغداد ولا للسلطان العثماني اذا ارادوا التخلص منهم كما رغبوا في التخلص من العصبيات الاخرى في البلاد الغربية لإعادة سيطرتهم المباشرة وفعلاً نجح السلطان العثماني في انهاء حكم الاسرة الجليلية واعاد السيطرة العثمانية المباشرة عليها .

_المماليك في مصر

استطاع المماليك في اواسط القرن الثامن عشر الاستيلاء على السلطة في مصر بعد أزاحه الانكشارية اللذين تركهم السلطان العثماني لحماية البلاد والمحافظة على الأمن ، وأخذ زعيم المماليك يطلق على نفسه لقب (شيخ البلد) واصبح هذا لنفوذه الكبير الحاكم الفعلي في البلاد واول من سيطر على الحكم هو (ابراهيم بيك) وهو لم يكن مملوكياً الا انه استطاع تشكيل حرس من المماليك وبواسطتهم سيطر على الحكم ومنح المماليك اقطاعات واسعة ، كما منحهم المناصب الادارية المهمة في الدولة وبعد وفاة ابراهيم بك تولى الحكم علي بك و ذلك في عام ١٧٦٣ واصبح من القوىٰ ان تحدىٰ الدولة العثمانية حتى انه امتنع عن دفع الضريبة السنوية المفروضة على مصر للدولة العثمانية ، كما طرد نائب السلطان من مصر ورفض ان يستقبل نائباً بعده وكون فرقة عسكرية واجرى اتصالات مع الدول الاوربية وبعد مرور ست سنوات من استلامه الحكم اعلن استقلاله عن الدولة العثمانية فتنهزا انشغال الدولة العثمانية في حربها مع روسيا وضرب النقود باسمه ولقب نفسه عام ١٧٧٠ لقب(سلطان مصر وخاقان البحرين) (البحر المتوسط والبحر لاحمر) واخذ اسمه يذكر في خطبة يوم الجمعة والاحتفالات الرسمية في جوامع مصر والحجاز التي خضعت بدورها لسيطرته عام ١٧٧٠ بعد اتفاقه مع حاكم مكة وارسل علي بك قواته الى الشام عام ١٧٧١ وضم دمشق نفسها الى مصر مؤسساً بذلك دولة مملوكية قويه وعقد حلفاً مع روسها ضد الدولة العثمانية الا ان الامور سرعان ما انقلبت ضد علي بك بعد نجاح السلطان العثماني في استمالة قائد الجيش المملوكي محمد بك ابو الذهب الذي اسمي من دمشق واخذ يقاوم سيده علي بك وقد وعده السلطان العثماني بولاية مصر وفعلاً تم القضاء على علي بك ، وفي ظل حكم المماليك لمصر ساءت الاوضاء كثيراً وعجز النظام المملوكي عن تحقيق الخير للمصريين واسمرت الأوضاع في مصر سيئة مما منح الجال للاوربين للتدخل في مصر فجاء الغزو الفرنسي لمصر عام ١٧٩٨ وبعد ذلك سيطر محمد علي على مصر الذي قضى نهائياً على المماليك.

اصلاحات محمد علي باشا في مجال التعليم (المحاضرة الثالثة)

اهتم محمد علي بالتعليم وجعله مجانياً وكان محمد على يدفع للطلاب رواتب لغرض دفعهم وتشجيعهم على الدراسة رغم ان محمد علي كان امياً وتعلم القراءة والكتابة في سن متأخرة، وقد أنشأ عدد كبير من المدارس فأسس مدرسة لتعليم الرياضيات والتي يدرس فيها باللغة الانكليزية اما بقية المدارس فكانت تدرس باللغة الفرسية ، مما جعل ذلك صعباً على الطلاب الذين لا يتقنون اللغات الاجنبية لذلك اخذ

محمد علي على عاتق الحكومة ترجمة المحاضـــرات الى اللغة العربية وطبعها وتوزيعيا على الطلاب مجاناً فازداد عدد المتعلمين كما ارسل عدداً من الطلاب في بعثات علمية الى اوربا للتزود بالعلم والمعرفة فأسـس مدرسـة للهندسـة وللطب وكلية للصـيدلة ثم للغات ومدرسـة للفنون والصـنايع وللزراعة وللطب البيطري، ونتيجة لذلك اخذت اللغة العربية تحل محل اللغة التركية كما اهتم بتأسيس المطابع لنشر اللغة العربية فأسس مطبعة بولاق وكانت تطبع جريدة الوقائع وجريدة الحكومة.

_ إصلاحات محمد علي في مجال البناء والعمران.

اهتم محمد علي اهتماماً كبيراً بتنظيم المدن وترتيبها فقد اهتم بالمباني في القاهرة والاســكندرية واراد بناء قصور فخمة على غرار القصور في العاصمة العثمانية (الأستانة).

_اصلاحات محمد علي في المجال الاقتصادي.

اهتم محمد علي بالزراعة اهتماماً كبيراً فأوصـــل مدينة الاســكندرية بالفرع الغربي من نهر النيل بقرعة المحمودية، كما شق العديد من الفرع والقنوات والسدود والقناطر واحتكر بعض المحاصيل الزراعية لغرض تشـجيع الصـناعة ، واهتم بالثروة الحيوانية كثيراً فعين اطباء بيطريين لمعالجة الحيوانات وارشـاد الفلاحين ثم الغى نظام الالتزام الذي كان ســائداً في الدولة العثمانية واعاد توزيع الاراضـــي على الفلاحين مقابل دفعهم الضـرائب للدولة بصـورة مباشـرة ، وقد كان للقرار الذي اصـدره محمد علي بوجوب اثبات ملكية الارض للفلاح المالك لها بموجب عقد سـجل (سـند الملكية) واذا لم يسـتطيع ذلك تصـادر الدولة الارض وتصـبح اراضـي (اميرية) وبذلك تكون ملكاً للباشـا وكان لهذا القرار اثر كبير في تأخر الزراعة في البلاد لان الفلاح كان غالباً لا يملك سنداً يثبت عائديه الأرض له فيضطر الى ترك ارضه، والتوجه الى المدينة فانخفضت العائدات الزراعية وأصبحت الأرض ملكاً مشاعاً للباشا.

واهتم محمد علي بالصناعة، خاصة الصناعة التي تخدم الأغراض العسكري وخاصة الاسطول واهتم كذلك بباقي الصـناعات وشـجع المنتوجات الصـناعية بدرجة كبيرة فأنشـأ مصـانع نسـيج صـوفية وقطنية وحريرية وكتانية، كما أنشــأ مصــانع لإنتاج الورق والزجاج والســكر والصــناعات الجلدية وبعض المواد الكيمياوية ومعامل ســبك النحاس والحديد ونتيجة للتطور الصــناعي طرق المواصــلات وزادت واردات الدولة.

_اصلاحات محمد علي في المجال الإداري.

اهتم محمد علي بالناحية الادارية فألف مجلس للحكومة سماه (الديوان العالي) وبعد ذلك أنشأ مجلساً سماه (المجلس العالي) في عام ١٨٢٤ وكان هذا المجلس يتألف من نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من علماء الدين يرشهم الجامع الازهر واثنين من التجار في العاصمة وبعد فترة وجد انه لا فائدة من انشاء هذه الدواوين فأصدر لائحة ادارية جديدة عام ١٨٣٧ حصرت بموجها السلطة في سبعة دواوين هي:

١_ديوان الخديوية، وتمثيل وزارة الداخلية في الوقت الحاضر ومهمة هذا الديوان المحافظة على الامن الداخلي في مصر.

٢_ديوان الجهادية، ويمثل وزارة الدفاع وهمة هذا الديوان الدفاع عن البلاد ضد أي خطر خارجي وتنظيم واعداد الجيش.

٣_ ديوان الإيرادات، ويمثل وزارة المالية في الوقت الحاضر وعمله تنظيم مالية الدولة.

٤_ ديوان البحر، ويمثل وزارة البحرية.

٥_ديوان المدارس، ويمثل وزارة التربية في الوقت الحاضر ويهتم بأنشاء المدارس وتطويرها.

٦_ ديوان التجارة، ويمثل وزارة التجارة في الوقت الحاضر وعمله تنظيم شؤون التجارة الداخلية والخارجية.

٧_ ديوان الفابريكان، ويمثل وزارة الصناعة في الوقت الحاضر وعمله تنظيم الأمور الصناعية وتطورها وقد طلب من كل مسؤول عن الديوان تقديم تقرير اسبوعي عن كل ما قام به.

_الثورة العربية في مصر (المحاضرة الرابعة)

قامت هذه الثورة بسبب تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر وازدياد التدخل الأجنبي من شؤون البلاد، ويعد قيام وزير الحربية يستريح اعداد كبيرة من الجنود المصريين احتج احمد عرابي واتباعه على قرار وزير الحربية واعتبر عرابي ذلك استبداداً وظلماً وطالب احمد عرابي بعزل وزير الحربية بعد ذلك انقلبت المطاليب الى حركة وطنية تطالب بالدستور والاشتراك بالحكم فاعتقل الخديوي توفيق احمد عرابي ومعه زملائه ولكن انتفاضة الشعب المصري أجبرت الخديوي على الاستجابة لمطاليب الوطنيين واطلاق سراحهم

وعين احد الوطنيين وزيراً للحربية وهو (محمود سامي البارودي) وبعد ذلك اجبروا الخديوي على تشكيل وزارة وطنية وانتخاب مجلس نواب لمناقشة الأمور المالية ولكن الخديوي وبريطانيا وفرنسا رفضوا الفكرة واصر الشعب المصري على مطاليبه لذلك استقالت الوزارة والفت وزارة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي عام ١٨٨١ سميت (وزارة الثورة) وعين احمد عرابي وزيراً للحربية مما اثار حفيظة بريطانيا وادعت ان احمد عرابي يهدد مصالحها ويعرض حياة الأجانب للخطر فطالبت بإقالة احمد عرابي وقدمت فرنسا وبريطانيا انذار للحكومة المصرية تطالب فيها بإقالة احمد عرابي ونفيه خارج مصر ولكن الوزارة رفضت الإنذار فعقدت الدول الاوربية الكبرى مؤتمراً إسطنبول للنظر فيما اسموه (المسألة الشرقية) حيث ذكر فيه ممثل بريطانيا بان الأوضاع في مصر تتطلب التدخل لقمع الثورة وكان السلطان العثماني عبد الحميد يضمر الكره لفرنسا لسيطرتها على المغرب العربي فايد بريطانيا ووافق بان تكون مصر اداريا بيد بريطانيا فوافق السلان على طلب الدول الاوربية لارسال جيش للسيطرة على الأوضاع المضطربة هناك واعلن ان احمد عرابي عاصياً عاصياً ويجب تأديبه فعقد احمد عرابي مؤتمر شعبياً اتهم فيه الخديوي توفيق بالخيانة ومساعدة الإنكليز وشكل مجلساً لتيسير شؤون البلاد وقرر اغلاق قناة السويس حتى لا تصل مساعدة من الاسطول البريطاني عبر القناة الا ان مدير القناة (فردیناد دي ليسيس)اقنع احمد عرابي بضرورة فتح القناة للملاحة وقنعه بان اغلاقها سوف يضر بمصالح مصر الاقتصادية لاسيما وانها تمر بأزمة مالية ووعده بعدم السماح للإنكليز بالمرور عبر القناة فأعيد فتح القناة مرة أخرى للملاحة وبدأت المناوشات المصرية البريطانية المصريون بالحاق هزائم بالجيش البريطاني في منطقة كفر الدوار في الدلتا ولكن الإنكليز استطاعوا الدخول الى مصر عن طريق القناة وفاجئوا القوات المصرية في موقعة التل الكبير في ١٣ أيلول ١٨٨٢ فانهارت الدفاعات المصرية وتراجع احمد عرابي مع جيشه نحو القاهرة وبعد ذلك تقدمت القوات البريطانية نحو القاهرة واستسلم احمد عرابي بعد معارك طاحنة وهكذا احتلت بريطانيا مصر في أيلول ١٨٨٢ ونفي احمد عرابي الى جزيرة سيلان ورجح الخديوي توفيق الى القاهرة واصبح العربة في ايدي الإنكليز واصبح حاكما فقط بالاسم اما الحاكم الفعلي فهو اللورد كرومر. شهدت المقاومة المصرية للغزو البريطاني لاسيما بعد استلام الخديوي عباس حلمي الثاني الحكم في مصر عام ١٨٩٢ وكان هذا يرغب بالتخلص من السيطرة البريطانية فناصر الوطنيين، ولكن الإنكليز لم يدعوه يعمل شيئاً

وحاصروه واوقفوا نشاطة، لذلك اقتصر نشاط الوطنيين على اصدار المجلات والجرائد التي كانت تفور اذهان الشعب ومن هؤلاء الوطنيين (مصطفى كامل) وهو كاتب مصري مثقف أنشأ جريدة (اللواء) عام ١٩٠٠ والتي فضح فيها سياسة بريطانيا.

وقد تألف الحزب الوطني برئاسة مصطفى كامل في عام ١٩٠٧ وقد طالب هذا الحزب: _

١- الجلاء البريطاني عن مصر.
٢- إعادة تحقيق وحدة مصر والسودان.
٣- استقلال مصر حسب معاصرة لندن لعام ١٨٤٠.
٤- تكوين حكومة دستورية للبلاد.
٥- احترام الاتفاقيات والمعاهدات الدولية.
٦- نشر التعليم وتأسيس الكليات للبلاد.
٧- بث الشعور الوطني بين أبناء البلد.
٨- تطوير علاقات مصر بالدولة العثمانية.

وفي السودان ، شجع نشوب الثورة العرابية وانتشار الوعي القومي السودانيون على ان يفعلوا فعل المصريين فيثوروا في صيف ١٨٨١ بقيادة محمد احمد بن عبد الله المهدي ضد استبداد الخديوي وحكومته ، وقد دخل السودان في حوزة الحكم المصري في عهد محمد علي باشا بين عامي (١٨٢٠_١٨٢٢)، وان سوء الأوضاع السياسية والاقتصادية في مصر لاسيما في عهد الخديوي إسماعيل الخديوي توفيق سرعان ما انعكست على السودان حيث اشتدت الضائقة الاقتصادية وعم الفساد الإداري فيه ومما زاد في ذلك استعانة الخديوي بعدد من المغامرين الأوربيين الذين اندفعوا للسودان لتحقيق اهداف دولهم الاستعمارية ،وفي ١٨ شباط ١٨٨٣ حرر المهديون (الأبيض) عاصمة كردفان واتسع نطاق ثورتهم في مناطق السودان الأخرى، حتى انهم اعلنوا تأسيس الدولة المهدية في السودان ، ويبدو أن الإنكليز تأخروا في

ارسال القوات العسكرية للقضاء على الثورة في السودان وذلك لكي يشعروا المصريين بعجزهم عن اخماد الثورة وعندئذ يتسنى لهم تنفيذ ساستهم القائمة على الانفراد بالسودان وفصله عن مصر ، ولقد تحقق لهم ما أرادوا اذ اتمت القوات البريطانية عملية اسقاط الدولة المهدية في ٢٥ تشرين الثاني ١٨٩٩ واقامت نظام حكم جديد للسودان وهو نظام الحكم الثنائي ومنذ عام ١٨٩٩ عرف السودان رسمياً بـ(السودان الإنكليزي_ المصري) ، ولقد ابدى السودانيون سخطهم على الأوضاع التي جاءت بها اتفاقية عام ١٨٩٩ واعترضوا على أساليب الإنكليز الإدارية ، وفي المدة التي سبقت الحرب العالمية الأولى شكل الإنكليز مجلس الحاكم العام لإدارة البلاد ويتألف من السكرتير الإداري والقضائي والمالي والمفتش العام وعدد من رؤساء الدوائر ونها المصارف والري والزراعة.

ضعف الدولة العثمانية (المحاضرة الخامسة)

تعتبر سنة ١٦٨٣ (وهي السنة التي حاول فيها العثمانيون عبثا احتلال فينا).

بداية تقهقر العثمانيين بعد ان استمروا مدة اربعة قرون ينتقلون من نصر الى آخر، وازدادت بوادر الانهيار في القرن الثامن عشر، فاتخذت الدولة موقف الدفاع بدلا من الهجوم، ويرى المؤرخون ان بذور تدهور الدولة يكمن في البناء الاساسي للدولة، ذلك انها نظمت على اساس عسكري كان سبباً في تفكك الدولة، وان كانت هذه العملية قد استمرت ثلاثة قرون قبل أن تتلاشى الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى.

_عوامل ضعف الدولة العثمانية وأسباب انهيار:

١ – فساد نظام الحكم

انتهى عصر السلاطين الاكفاء الاقوياء بموت السلطان سليمان القانوني، وتتابع على عرش الدولة العثمانية سلاطين ضعاف، انغمسوا في اللهو والترف، واهملوا شؤون الدولة، فكثرت المفاسد والمؤامرات قال تعالى: «وإذا أردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً»، وكثر

النزاع على العرش، وظهرت عادة قتل السلاطين لأبنائهم او اخوانهم خوفاً من منافستهم على العرش، كما انتشرت عادة حبس الامراء في مقاصير خاصة، وحرم عليهم الاتصال الخارجي، فكانوا يقضون حياتهم في صحبة الحشم والجواري، فحرم هؤلاء من .اكتساب خبرات الحكم، كما حرمت الامة من رجال قد يكونوا أفذاذا قبل قتلهم.

وتدخلت النساء في شؤون الدولة لتحقيق مصالحهن الخاصة، فقد خضع مراد الثالث لسيطرة أربع من السيدات هن والدته وزوجتاه وكبيرة وصيفات السراي، وكثرت مؤامرات النساء لعزل كبار الموظفين او تعيينهم وفق مصالحهن، وتزوج بعض الامراء من بنات اجنبيات، فأفشين اسرار الدولة وتسبب ذلك في الهزائم المتكررة.

وكانت المناصب تباع، فكان الموظف يشتري عمله مقابل مبلغ من المال، وسرعانه ما يحاول استرداد ما دفع من الرعية بوسائل مختلفة وانتشرت الرشوة بين الموظفين، واهملت المرافق العامة، وتعطلت المشاريع والاصلاحات.

٢ – فساد الإنكشارية:

انشأ السلطان اورخان الجيش الانكشاري باختيار افراده من ابناء البلاد الاوروبية المفتوحة ((ضريبة الدفشرمة» وتلقينهم مبادئ الاسلام، وتدريبهم على فنون القتال والحرب، وقد ابلى هذا الجيش بلاء حسمناً، ثم اصابه الوهن، فاصبح الجيش الذي كان مصدر رعب أوروبا يخيف عاهلها ورعاياها ، وصار الجنود والضباط يتدخلون في شؤون الدولة، وانغمسوا في الملذات، وفقدوا الانضباط العسكري، ووثب بعضهم الى مراكز قيادية في الدولة، وصاروا هم الآمرون الناهون، واصبح السلاطين العوبة بأيديهم، يخلعونهم متى شاءوا، فخلعوا مصطفى الثاني، واحمد الثالث، ومصطفى الرابع وغيرهم، الى ان قيض الله للسلطان محمود الثاني التخلص منهم وسلط عليهم المدفعية فدمرتهم وانتهى أمرهم.

واعتمد العثمانيون على الجنود الاقطاعيين، ولكنهم ارتبطوا بالأرض، وتهربوا من الخدمة العسكرية، فاعتمد العثمانيون على الجنود المرتزقة، فساروا على نهج قادتهم في الفساد والترف واللهو، وهكذا أصبحت القوات العثمانية سبباً من اسباب انهيار الدولة، وبخاصة لاشتراكهم في المنازعات المحلية، وتدخلهم في الشؤون السياسية وتخليهم عن واجبهم في حماية البلاد، وعلّ فساد القائد العثماني بلطه جي باشا مثلا على ذلك، ففي عهد السلطان احمد الثالث حاصرت الجيوش العثمانية بقيادة بلطه جي باشا

القوات الروسية بقيادة القيمر بطرش الاكبر وزوجه كاترينا، فقامت الاخيرة باغراء القائد العثماني بالجواهر، واستمالته اليها، فرفع الحصار وضاعت فرصة القضاء على رأس الدول وربما على الدولة كلها.

٣ – اتساع رقعة الدولة وعدم تجانس سكانها:

بلغت الدولة العثمانية اقصى اتساع لها في عهد السلطان سليمان القانوني، فبلغت مساحتها ١٤ مليون كم^{٢}، وامتدت املاكها في آسيا من بحر قزوين الى خليج عدن، وفي أوروبا وصلت املاكها الى فينا، فشملت بلاد العرب وبلغاريا والمجر ورومانيا واليونان، وفي افريقيا شمال افريقيا، فكانت للساحة واسعة الأطراف، والمواصلات قليلة غير منظمة، وتعتمد على الدواب والعربات مما أدى الى صعوبة انتقال الجيش من منطقة الى أخرى في الحالات الضرورية.

وضمت الدولة شعوبا واممًا عديدة كالعرب والبزابرة والاكراد والارمن والصقالية واليونانيون والسلافيين، وكانت تختلف في اللغة والجنس والعادات والتقاليد والدين، الا ان الرابطة الاسلامية كانت تجمع هذه الشعوب الى ان ظهرت القوميات ونمت الحركات المطالبة بالاستغلال، ولا سيما في البلقان فكثرت الثورات منها:

- ثورة الاقطاعيين كالمعنيين والشهابيين في لبنان، وآل سيفاً في طرابلس، وظاهر العمر في فلسطين، وعلي بك في مصر.
- الثورات الدينية، ومنها الزيديون في اليمن والوهابيون في نجد، وهناك ثورات الجيش الإنكشاري، والاسرة القزمنليه.

التخلف العلمي والتكنولوجي:

عجز العثمانيون عن مجاراة التطور التكنولوجي في اوروبا عكس ما كانوا عليه في القرن الخامس عشر حين اقتبسوا المدفعية وأهملوا القطور الحضاري، وتشبثوا بأفكارهم القديمة، وبقيت مدارسهم ومعاهدهم التعليمية دون تقدم، ولم ينصرفوا الى العمل، وانشغلوا بالفتوحات والحروب فعم الجهل والتخلف والفقر، ووقفوا عاجزين امام متطلبات الحضارة، وفي الوقت الذي أصاب العثمانيون التخلف كما أصاب شعوبهم، بدا الاوربيون يأخذون بأسباب التقدم العلمي، وتسخير التكنولوجيا لخدمتهم، فاخترعوا الاسلحة الحديثة،

وطوروا الصـــناعة، وانطبق قول الله عز وجل «كيف وأن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة» فظهروا على المسلمين العثمانيين بعد ان كانت لهم الغلبة.

وانعكس التخلف التكنلوجي على اقتصاد الدولة، فظل مستوى الزراعة بدائيا، والصناعة تقليدية، وكانت الصورة العامة للتجارة في حالة تدهور، فكثرت الازمات الاقتصادية، ولم يعد الدخل كافيا لتغطية نفقات الدولة من جيش وموظفين وقصر، فلجأت الدولة الى فرض الضرائب المرهقة على السكان. .

ومما زاد الازمات الاقتصاد تدفق المعادن الثمينة من امريكا (بعد للكشوف الجغرافية) على شرق البحر المتوسط مما ادى الى انخفاض قيمة العملة العثمانية، وارتفاع تكاليف الحياة، كما ان الدولة لم تهتم بالميزان التجاري.

الامتيازات الاجنبية:

قدمت الدولة العثمانية بعض التسهيلات البسيطة للدول الاوروبية بهدف اعادة الطريق التجاري الى البحر المتوسط، ثم منحت روسيا حق بناء الكنائس وحماية المسيحيين الأرثوذكس بموجب اتفاقية قجق كينارجه، وفرنسا حق حماية الكاثوليك، وبريطانيا حق حماية البروتستنت، وتوسعت هذه التسهيلات فأصبحت تشمل الاعفاء من الضرائب والاستثناء من المحاكم العثمانية، ومنح القناصل حق النظر في الدعاوي التي يكون الاجانب طرفاً بها، وكان لهذه الامتيازات اثرها الخطير على الدولة، فأخذت الدول الاوروبية تحرض المسيحيين، والتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية بحجة حماية الرعايا الاوروبيين ، كما كان لتلك الامتيازات اثرها على الولايات العربية، لأنها جعلت للأجنبي مركزاً خاصاً يتميز به عن العرب أصحاب البلاد، كما قضت على مبدأ الشريعة الاسلامية داخل دار الاسلام، واستغل نظام الامتيازات من قبل الدول الاوروبية كوسيلة من وسائل الاستعباد الاستعماري للأقطار العربية .

الحروب الخارجية:

بلغت الدولة العثمانية اقصى اتساع لها في القرن السادس عشر واصطدمت بحواجز لم تستطع اجتيازها، ففي الشرق واجه العثمانيون الصفويين فاخترقوا الحدود الايرانية. ولكنهم لم يستطيعوا الحفاظ على ما اجتاحوه، كما تصدوا للبرتغاليين ومنعوهم من التوغل في مياه البحر الاحمر والخليج العربي، وفي الغرب واجهت العدوان الروسي المستمر للوصول الى المياه الدافئة، كما واجهت النمسا التي كانت طامعة في

الســيطرة على دول البلقان، وفي القرن الثامن عشــر شــرعت فرنســا وانكلترا تفتش عن مناطق النفوذ، فاتجهت بأنظارها نحو ممتلكات الدولة العثمانية (الولايات العربية)، وأخذت تقتصب منطقة تلو الاخرى.

ادت الحروب المســتمرة الى اســتنزاف القوات العســكرية ثم انهيارها، وتدهور اقتصــادها، وأنهاك خزينتها بسبب الخسارة المستمرة في العدد الحربية، بالإضافة الى قتل اعداد كبيرة من القادة والجنود.

الاستاذ. نبراس خليل ابراهيم

الاستاذ. ايمان عبد الله حمود